مقامات الكتابة

شعيب حليفي

١ ــ تُشيّد الرواية المغربية، ونحن على مشارف قرن جديد وتحولات أخرى، موقعَها المميَّز بأصواتها في النسق الثقافي العام بالمغرب، رغم حداثة البداية وخطواتها. وذلك راجع إلى خصوصيات هذا الجنس الأدبي الذي استطاع الاستناد إلى مرجعيات ذات سلطة، منها سلطة الرواية العربية في مصر والشام أساساً ثم سلطة الرواية الأوروبية والأمريكية اللاتينيّة والتنظيرات التي شهدتْ غنًى في النقاش والتطور... مثلما استند السردُ المغربي إلى الذات وتراثها الشخصي المليء بالآمال والأوهام والجراح والتناقضات المتراكبة. فمنذ نصوص الفقهاء في بداية القرن، وخصوصاً كتاب ابن المؤقت المراكشي، كانت بنيةُ الانتقاد والعلاقة المتوتّرة مع الذات والواقع حاضرةً لم تجد قناة لتصريفها سردياً غير التخيّل عبر الديني الحامل للوعظي والتعليمي.

وتطورت العلاقةُ مع هذا العنصر الذاتي في ظهور أُولى الأشكال الروائية بالمغرب في صيغة السيرة الذاتية، وهي الصيغة التي ستظل مهيمنة بشكل كلي أو جزئي في العديد من النصوص، فضلاً عن تتبع مسار الذات في شكلها الكلي والخاص والتي ظلت رهينةَ الرجّات السياسية والاجتماعية، الأمر الذي يعطي لحركية التفاعل وديناميةِ التصادي قوة بناء هذه الذات... خصوصاً في النصوص التي كُتبت في العقد السبعيني. وبعد منتصف الثمانينات تحولتْ، بعضَ الشيء، العلاقةُ مع الذات من جهة ثانية، متداخلةً حيناً ومتباعدة حيناً آخر. لهذا تشكلت أهمُ ملامح الرواية المغربية إلى حدود تلك الفترة في الرواية ـ السيرة التي تجعل من الذات أولى الذوات قُطباً يضيء ما حوله أكثر مما يضيء نفسه وما بداخله.

ولعل دخول الرواية المغربية في تجربة أخرى من أهمّ سماتها المزيدُ من الانفتاح وتعديد أصواتها وإبراز عمق إمكانياتها في التقاط ما هو أبعد من الواقع، هو ما يكشف أنّ بإمكان الرواية اليوم فتحَ كوًى أخرى والتفاعلَ مع مناطق وأبعادٍ ظلتْ مغلقةً في الذات أو غير متحاورة معها بالعمق المطلوب.

وينطلق رصد التطور الروائي من عناصر أساسية تكمن في تطوير اللغة الروائية وتطويعها، وفي تحرير المتخيل كي يرتبط بما هو محلي وباطني... فضلاً عن مبدإ التمثّل، وبناء النظرة تجاه الذات والآخر والأشياء المتشكلة.. إضافة إلى عناصر بنائية وجمالية أخرى تنصهر في كيان الوعي النقدي والأثر النظري في المجال السردي وتأثيراته القوية والمؤثرة. ومن ثمة، وفي هذه المرحلة، تعددت الأشكالُ الروائية، كما تعدد الروائيون المنتمون إلى حقول متنوعة من المعرفة في الأدب والتاريخ والفلسفة والاجتماع والسياسة والعلوم والجماليات... وهو أمر حقيقٌ بالحفر بقصد استثمار السمات الجديدة التي تحملها الرواية والأثر المرجعي بأبعاده وتحولاته، خصوصاً أن النقاش قد انفتح جدياً على التراث المحلي والعربي: من التاريخ إلى التصوف واليومي والسجلات المتنوعة بهدف إمداد النص الروائي بنسغٍ وحياةٍ في أفق رسم الذات والمستقبل.

٢ ــ يتأطر نص **المدارج** بجزئيه* ضمن الأشكال السردية الباحثة عن بناء شهادة، وسط السرود المغربية، تنطلق من وعي خاص بمبحثَي الجماليات والعشق الصوفي والفلسفي، فتتنازع النّصَّ حالتان من التجريب في موضوع ممتد إلى قضايا واحدة تمتْ مقاربتها في **مدارج الليلة الموعودة ومدارج الليلة البيضاء**. ولئن كان الجزءُ الثاني قد جعل من الجزء الأول مرجعاً له وبشكل صريح، فإنّ الجزء الأول كان يتطمن الجزء الثاني «الموعود» كمرجع قادم من أحشائه.

* ـ مـوليم العـروسي: **مـــدارج الليلة الوعودة**، ج ١. ط ١، الدار البـيـضـاء، ١٩٩٣.
مـوليم العـروسي: **مـــدارج الليلة البيضاء**، ج ١ . ط ١، الدار البـيـضـاء، ١٩٩٤.

فـي **المـدارج** هناك التصادي العنيف للأشياء والكلمات والمرجعيات، حيث انفتاحُ الحكاية من نقطة مضيئة وضيقة إلى تيهٍ موسّع بحثاً عن الإدراك الذي يتجاوز به الراوي قواعدَ الواقع اللامدرك. ومن ثمة كانت الذاتُ هي المدخل الأثير للمدارج، والمدخلَ أيضاً للحكاية وخطابها عبر التمرد على اليقين الوحيد والمشتّت في أشياء وعناصرَ كثيرةٍ داخل الحياة.

يؤسس الراوي في المدارج، ومنذ البداية، باباً وهمياً عامراً بالتخييل، يورِّط فيه الحكايةَ والقارئَ عبر تعبيراتٍ توظِّف نظاماً حكائياً وسروداً وأوصافاً تشريحية عمودية ملغّمةً بأسئلة وظيفية متنوعة تضيء أنواع الخطابات المتجاورة مع الديني والصوفي والأدبي والفلسفي والأسطوري والشخصي... بقصدِ خلقِ معرفةٍ ذاتِ معنى فلسفيّ حول الوجود والحياة وباقي المصائر. وقد تغيّا الراوي، وخلفه المؤلفُ، تـأثـيـث **المـــدارج** بمجموعة من العناصر التي شكّلتْ محرّكاً للحكاية ولبناء الأخيلة والمرايا الجامعة لمتناقضات ضرورية.

أولاً: السرد الاستكشافي المتدرج عبر المقامات والمستويات في إطار المدارج وعلاقتها بما هو روحي للوصول إلى الجسداني؛ وهو ما يقود الراوي إلى البحث الجذري عن الحقائق داخل الأوهام حيناً، وعن الأوهام داخل اليقينيات مرة أخرى، معزِّزاً هذا البحثَ بالحكي بضمير المتكلم وقدرته على تحرير السرد من سلطة الغياب إلى تأكيد سلطة التذويت عبر مبدإ التمثل الذي يبني **المـــدارج** من أجل تثبيت رؤية للعالم تمر من الذات. وبالتالي فإن السرد الاستكشافي هو صيغة للتعرف على الذات متخذاً طابعَ الانسياب واستدراج المتلقي بأفعال حكائية ومغامرات استيهامية. اقرأْ مثلاً: «سارت بي أياماً دون أن تتوقف. وكنت خلالها أنام بعين واحدة كالذئب. انتبهتُ فكانت أصوات الرعاة ونباح الكلاب وغثاء الخرفان قد انقطعتْ نهائياً. مددتُ يدي إلى الشواري الموجودة على ظهر مطيتي، وأكلتُ بعض حبات الزيتون المرّ. كان له وقع المنيّة على جسدي جُلْتُ ببصري في الآفاق، فرأيتُ الجبال الجرداء وبعضَ النباتات الغريبة التي تقاوم الريح في قلق وجود ظاهر» (ص ٧٤/**مدارج الليلة البيضاء**).

يتحول السرد إلى عمليات حفرية عن خطابات متضمِّنةٍ للاستيهامي والعجائبي والتماثلي. وهنا تبرز الأداةُ السردية في يد الراوي الذي يرسم، في لحظة واحدة، واقعاً أولاً وواقعاً ثانياً، وذلك رهانٌ قصديٌّ لإغناء الصورة وتعجيبها من أجل السيطرة عليها.

ويُعتبر الجسد في **المدارج** تيمةً قويةً لتحفيز السرد وتأكيد الحكي لأنه منبع الغواية والامتداد: «أظن كل مرة تعلق بي جسد عذري أنني أنخدع. الجسد العذري هو مبتغاي الدائم، لكنني أظن أن منطلق الغواية كان الأم» (ص ١٣/**مدارج الليلة الموعودة**).

وهو يشبه أيضاً الكتابة التي يسعى من خلالها إلى التطهر: فالجسد العذري البكر يُصبح ملاذاً وعلامةً على كينونة مفتقدة وهوية مشتركة. وبين السرد والذات يتحقق الحكيُ عن الجسد والتعرفُ على العشق ونسائج العلاقات المتداخلة في الخيال والواقع بين وحدتي الشيخ والطفل من جهة، ثم بين علي ومريم من جهة ثانية... وما ينفرز عنها من علاقات تؤسس لعنصر جديد هو المرآة والإدراك حيث يصبح التداخلُ تذاوتياً، ويتحول الحلمُ من صيغة الالتباس إلى حلم في الآخر لا به.

يشتغل الراوي بأدوات تحمل من سماته وتعمل باقتصاد، فتعطي للوصف إمكانية التحول إلى صورة تساهم، بدورها، في البناء إلى جانب اللغة التي لا تؤمن بالخطية أو بما هو ظاهري فتعمد إلى التموقع احتمالياً، حاملةً لنواياها التي قد لا تتفق بالضرورة مع نوايا المتلقي لأنها تعتمد طبقات اللاشعور وتبني خطاباً منفتحاً ومتعدداً.

كما أنّ الراوي يعطي للحوار فرصةَ مضاعفةِ الصوت وتجذير الأصوات الأخرى في وعي الحكاية. حتى إنّ بناء الحوارات في **المدارج** يسعى إلى الجمع بين تفكيك الحكاية ومعاودة تركيبها، وبين إمدادها بالتعجيب والفكاهة السوداء في أفق البحث عن تلك المعرفة بالذات. اقرأْ على سبيل المثال:

« ـ السلام عليكم يا ولدي.

رفعتُ بصري فرأيت شيخاً هرماً وكأنه قطعة صلصال.

ـ وعليكم السلام! لكنني لست ولدك.

ـ أنسيت لغة بني جلدتك وأخلاقهم؟ إنّ مِنْ حَقّ مَنْ يكبرك سنّاً أن يدعوك ولدي.

ـ من هم بنو جلدتي؟ أي الحيوانات تقصد؟

ـ أقصد البشر طبعاً! ألست بشراً مثلي؟

ـ أنا لست بشراً. هل أنت أعمى؟

ـ لا لست أعمى، ومن أيّ الفصائل الغريبة أنت؟ إنك تتكلم لغتي على كل حال.

ـ وما هي لغتك أيها المخلوق الصلصالي الغريب؟

ـ اللغة العربية الأصيلة لغة أجدادي الذين صنعوا تاريخ البشرية جمعاء.

ـ إنني محتاج إلى النوم، وأرى أنك محتاج إلى بعض الأكل كي لا تستمر بعض عضلاتك في التآكل» (ص ٩٧/**مدارج الليلة البيضاء**)

على هذا الغرار يؤسس الراوي لمعرفةٍ ملآى بالشك والافتراضات واللعب... وتنتظم داخل التخييل الأدبي والفني في نص **المدارج**.

ثانياً: تتمظهر السجلات المرجعية كقيمة في خلق الأبعاد الفنية للنص وأهميتها في استدراج قضايا متقابلة ذات قدرة على خلق أنوية حكائية متوالدة؛ ففضلاً عن كون اللغة هي الأداة الحاملة لهذا المرجع فإنّ قدرتها تكمن في صهر لغات أخرى تحقّق للتجربة حضورَها مع أصوات السيرة والبيوغرافيا وأصواتٍ استيهاميةٍ تقف على مرجعٍ يحيل على المبدإ الصوفي والعنصر الجمالي، وهما معا (المبدأ والعنصر) يقودان الخطاب إلى مستوى الترميز.

إنّ المرجع في **المدارج** تختزله المقاماتُ والحكايات في تشكلها وتفاعلها لإنتاج سياقات خطابية للإخبار والتأمل وصياغة مفاهيم وجودية وجمالية خاصة بالذات ومعرفتها وعلاقاتها. ويحتل مرجعُ المسار الرومانسي، الحاضر بعنف باطني في شكّلَي العلاقة والاستيهام، بُعداً آخر يستولد مرجعياتٍ ذاتيةً للمحنة والتيه ومرجعياتٍ متعلقةً بالسرود الكلاسيكية تستدعي العجيب والمعرفي وتغيِّبُ التاريخيَّ والايديولوجي الذي طالما استحضرتْهُ النصوصُ الروائية المغربية والعربية وما زالت. وهو إشكالٌ يفتح في **المدارج** سؤالاً محرجاً ويضع النصُّ الفني أمام سلطة المصفاة التي حاولتْ تشييدَ نصٍّ فنيّ متحرر من التاريخ والإيديولوجيا ومقيَّد بهذا الإقصاء.

يلتفت النص في بناء مرجعيته إلى المرآة، جمالياً وتقنياً، لتغذية سؤال العلاقة بين الشخصيات أو الأقنعة لاستيضاح حافزِ البوح بالعشق، وما يترتّب عن ذلك من مشاعرَ تتراوح بين الاندفاع والاستيهام، وبين التأمل والهمود بالرجوعَ إلى الذاكرة وقدرتها على التخيّل والاندماج، ثم التواصل والإدراك في حضور الظل وسلطته على الذات والخطاب.

«إننا نتصرف في حياتنا وكأن النسخة لا شأن لها. هَبْ أنّ هذا الظل اختفى، ألا يكون شرطاً من شروط وجودي؟ وما سر هذا الارتباط الغريب الذي يسري بينه وبيني؟ هل يدافع فقط عن وجوده؟ هل يتصرف فقط كمأمور؟ لا أظن ذلك». (ص ١٤٣/**مدارج الليلة البيضاء**)

إن نص **المدارج** بهذه الصيغة يرصد سؤال العلاقة في حيوات الأجيال وفي العلاقات بين الذكورة والأنوثة، والروح والجسد، والذات والآخر، والماضي والحاضر، ثم بين الواقعي والحلمي... وهي أسئلة تختزل الأسئلة الجوهرية في مباحث الجماليات والفلسفة. وهذا التركيب اللغوي ـ الحواري في **المدارج** لصور المشاعر في تشكلها وانحلالها يعمل على تدميرٍ بطيءٍ للمرجعيات واليقينيات ووجهات النظر من أجل تنضيد وعيٍ ذاتيٍّ مكثّف في الحوارات الممتدة داخل الليلة الموعودة والليلة البيضاء وما تخلّفه من صدى للإحباط وآثارٍ للأخيلة المثقلة بالتطلعات الروحانية.